عندما تشرق الشمس من المغيب

قصة بقلم احمد سويد

لم تكن أم جابر لتتوقع عندما خرجت من المخيم بعد الظهيرة ان يصفو خاطر شباط ، وان يمسح عن وجهه المتلون سحب الانفعال والغضب وان يتساهل على غير عادته ، فيطلق الشمس من اسرها الطويل ، لتشيع بعض الدفء في الخيام المقرورة ، وفي أعصاب اولئك الذين لا يعرفون الدفء الا حين تمنحهم اياه حرارة الشمس .

وأغرت « الصحوة » ام جابر باستراحة قصيرة فهرعت الى جدار هرم الحجارة ، تعودت ان تتذرى به ، كلما قادها التحنان الى هذا المرتفع المشرف على النعيم المفقود .

وامام الجدار ، جلست على حجر رطب ، ثم ركزت سلتها بين رجليها الموحلتين ، وألقت نظرة جانبية على ما جمعته فيها من نبات بري ، وراحت تغمغم بشيء من الطمأنينة الحزينة :

ـ لسوف نتعشى ونشبع هذه الليلة .

وكالنحلة المشتاقة الى الترحال ، بدأت هي رحلتها :

هذه سهول الحولة مبسوطة امامها كالكف ، وهذه هي بحيرتها ، انها ترى هذه البحيرة تتضاءل وتنكمش ، وقد سألت أبا جاسم مدير المخيم عن سر ذلك ، فأدهشها جوابه وحيرها . لقد قال لها انه قرأ في الجرائد ان « الخنازير » يحاولون تجفيفها ليحولوا أرضها الى حقول علها تشبع سيول جرادهم المتدفقة ، وأدهشها اكثر ، عندما قال لها ان تلك البقع حول البحيرة ليست مستنقعات ، وانما هي مزارع للأسماك .

ـ ول ، هل تزرع الاسماك كما يزرع القمح والشعير ام انها تنبت هكذا عفوا كما ينبت الجرجير على ضفاف الانهار ؟

ولماذا يرضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ان يأكل اليهود السمك حتى يتخموا ، وان نأكل نحن العار والجليد وحشائش الارض ؟

وصرّت ام جابر على اسنانها بشدة حتى كادت تطحنها وبلعت دفعة شحيحة من ريقها المر ، ثم سمحت لبصرها ان يكر من جديد :

ـ هذه هي جبال الجليل ، الضباب الخفيف يلفها بغلالة شفافة . وأعمدة هزيلة من الدخان الابيض تتصاعد متهالكة ، من قراها المتكاثرة كأنها شكايات المظلومين ، وغيمة صغيرة من الضباب تركض كالحمل الوليد نحو الجنوب ، نحو صفد .

ـ نحو صفد ؟ واحسرتاه على صفد .

وتنتفض ام جابر كأن يدا عابثة قد نكزت رقبتها بدبوس :

ـ يا ليتني معها . مع الغيمة . بيت اختي على الطريق ، على يمين الطريق ، في مدخل البلدة ، امامه سروة شاهقة القامة لكنها ابدا حزينة ، ووراءه شجرة تين أسود ، كانت تعشقها العصافير فهل ما زالت تعيش وراء بيت اختي شجرة التين ؟

وأختي سميحة ، ماذا تراها الان تفعل ؟

هل يسمح لها « الكفار » ان تفتح شبابيكها للشمس ؟ هل يسمحون لها ان تخرج الى باحة الدار لتتشمس ؟ لتتذكر في الضوء أبناءها المشردين وتبكي دونما ضجيج ، وترفو ثوبها الممزق ؟

ماذا تقولين يا سميحة ؟ ارفعي صوتك قليلا لاسمعك ؟ لقد شنقوه ؟ شنقوا من ؟ « طحبيش » الوفي ؟ وماذا فعل المسكين حتى استحق هذا العقاب ؟ نبح في وجه دورية منهم ؟ يا لهم من كلاب قذرة ، ان طحبيش لم يتعود ان ينبح الا في وجه اللصوص وهم من أجل ذلك شنقوه .

... وتتابع الغيمة الخفيفة جريها البطيء ، وفي أعقابها تنثال خواطر ام جابر :

ـ ها هو بيتنا فوق التلة الخضراء على الطرف الاخر من صفد . انه الان تحت الغيمة تماما ، احجاره دكناء عابسة كأنها هي الاخرى تبكي ، وفي شباكه الغربي شقراء غريبة تلقي غزلها الماجن لشاب يعبر الطريق ، ما أوقحها ، الشاب يبتسم لها ، ثم يرتد ، فيدخل للحظات ، يخرج بعدها مسرعا ، ولا يكاد يخفيه منعطف الدرب حتى توجه دعوتها الخليعة الى شاب اخر خليع مثلها ، وأبوها وكلبها في الدار يتشمسان ويجترّان تحت العريشة العارية ، لعنة الله عليها وعليه ، لقد حولا بيتنا الى ماخور ، وأجلسا كلبهما على سجادة الصلاة .

وتجهش ام جابر وهي تلتقط دموعها :

ـ لن تحمل العريشة بعد اليوم عنبا ، ولن تتدلى منها العناقيد . وصورة جابر لم تعد معلقة في مكانها من الجدار الشرقي . لقد مزقها اللصوص حتما وداسوها بأرجلهم ، مرغوا خدوده الوردية بنعالهم ، لانهم لا يطيقون النظر الى وجهه الطافح بالشهامة والرجولة ، لا يطيقون نظراته الصارمة ، ونظرات بندقيته التي تغفو على ركبتيه ، فلقد أذاقتهم هذه البندقية الهزيمة والويل في معركة القسطل ، يا لوعتي على جابر ، لقد قال لنا يومذاك وهو

يودعنا على عتبة البيت : « لسوف اعود » ... ولكنه لم يعد . لم يف بوعده لنا ، وماتت زوجته بعده بشهرين ، ومزقه اللئام مرتين ، مرة في ساحة المعركة ... ومرة على جدار البيت .

وتمد أم جابر يدها الى زنارها وهي تشهق :

ـ البيت بيتنا وهذا مفتاحه ، فلماذا يسلبونه منا ؟ لماذا لماذا يغتصبونه ؟ لقد أقفلته بيدي هذه فمن انتهك حرمته وشرع لهم ابوابه ؟ اغفر لنا يا بيتنا الحبيب ، وسامحنا . فنحن ما هجرناك جبنا ، نحن لم ننهزم . لم نهرب ، ولكنهم خدعونا ، أي والله خدعونا . فقد جاء القائد ذات صباح وجمعنا في الساحة ، وقال لنا بلهجة الآمر :

ـ اخرجوا غدا .

ورد الرجال بهدوء :

ـ لن نخرج .

وزغردنا نحن للرجال .

وعاد القائد يهدر :

ـ هي بضعة ايام ثم تعودون .

ولكن الرجال صاحوا في وجهه :

ـ لن نخرج .

وصفقنا بحرارة للرجال وصحنا معهم :

ـ لن نخرج ، لن نخرج .

وخفت صوت القائد هذه المرة كأنه يوشوشنا بسر :

ـ يا جماعة افهموا ، اخلوا الميدان للجيوش السبعة ، ولا تفسدوا علينا خططنا .

وتبادلنا النظرات نحن والرجال ، ثم أذعنا على مضض كيلا نفسد عليهم خططهم .

ونكس الرجال أبصارهم وبنادقهم .

وشككنا نحن مفاتيح الديار في الزنابير وخرجنا .

وتركنا الخبز طريا في المعاجن ، والخزائن حبلى بالخيرات ، والخوابي متخمة بالدبس والزيت .

وقبل ان نخرج سقيت بيدي هاتين القرنفلة في شباكنا الغربي ، ولثمت بشفتي هاتين ذيل هرتنا منثورة التي صارت تدور حولي وتموء فيقطع مواءها نياط قلبي . وحضنت وردة الدار أودعها باكية فلكزني ابو جابر :

ـ مالك يا ام جابر ، هل جننت ؟

ومسحت دموعي ، وزينت ثغري ببسمة صفراء مزيفة وأجبته والشك يأكلني :

ـ قلبي يقول لي يا أبا جابر اننا لن نعود .

فرجمني بنظرة يمتزج فيها اللهب بالعتب ، ونهرني:

ـ ألا تؤمنين بالله يا فطمة ؟ أما سمعت ما قاله القائد ؟ انها أيام ونعود .

وسرنا ، وكان الفجر ما يزال مختبئا ، وراء الجبال الشرقية ، فجرت وراءنا منثورة وهي تنوح ، واعلن حمارنا العصيان لا يريد ان يتحرك فعالجه عكاز أبي جابر بضربتين، وصاح ديكنا مذعورا فأحدث صياحه المرعوب ، هرجا ومرجا في القن ، وسأل زياد وهو يسحب يده من يد جده ليفرك بها عينيه الناعستين :

ـ الى أين نحن ذاهبون يا جدي ؟

وسأل جهاد وهو يكاد يغفو على ظهر الحمار :

ـ هل جاء اليهود يا جدتي ؟ لماذا لا نختبىء انا وجدي في الحديقة ، ونقتلهم كلهم كما قتلوا أبي ؟

وغصصت وغص ابو جابر ، وصمت الطفلان .

... وأشرقت الشمس علينا في سهل الجاعونة ، لتبصق بازدراء على القافلة الطويلة التي كنا فيها ، والتي كانت تحمل هزيمتها بمرارة وتدب ببلاهة وعمى نحو مصيرها الاسود ، نحو العار والبؤس والعفن والضياع .

وعند العصر كانت قافلة الصمت تجتاز البرزخ الاخضر بين « المطلة » و « المنارة » . وكانت الرشاشات الغادرة تنتظر صيدها الهين الوفير عند مشارف المستعمرين .

... وزغرد الرصاص في اللحظة المواتية .

وبدأت الاجساد التعبى تتساقط .

وكان موسم القطاف رائعا وسخيا .

وجذبت الطفلين الي ، واحتضنت بهما الارض فلصقا بها كالارنبين الخائفين ، وكنت أرفع رأسي بين الفينة والفينة لاتفقد أبا جابر ، فأراه ما يزال يعدو ذات اليمين وذات الشمال كالثور الهائج ، يلتقط التراب والحصى والحجارة ويقذف بها الهواء والفضاء حولنا ويزعق كالمجنون :

ـ يا كلاب . يا سفاكين . يا جبناء . لو كانت بندقيتي معي ، لعلمتكم كيف تكون الشجاعة .

وصحت به ، وصاح به الاخرون :

ـ انبطح يا ابا جابر .

ولكن أبا جابر لم يسمعنا ، كان مشغولا عنا بمبارزة اليهود ، بتسديد قذائفه الكلامية الى مستعمرتيهما الغادرتين .

وتململ زياد تحت صدري :

ـ لماذا لم نبق في صفد يا جدتي ؟

وبكى جهاد :

ـ لماذا لا نهرب الى بيتنا يا جدتي ؟

وحدثت نفسي بتمزق :

ـ لماذا أطعنا القائد ذا النجوم الصفراء ؟ لماذا أطعناه وخرجنا ؟

... ولم أكد أكمل ، حتى سمعت صرخة حادة :

ـ آخ . لقد قتلت .

والتفت ، فاذا البرج الذي اسمه ابو جابر يهوي على بضعة امتار مني . وزحفت اليه أهزه ، أتحسس صدره وجنبيه . أناديه ، وأضمه بيأس قاتل :

ـ أبا جابر . أبا جابر .

ولكنه لم يجبني ، بل مد يده فغرس اصابعها الغليظة في شعر الطفلين ، اللذين كانا ينتحبان فوق صدره ، ثم ابتسم لهما والدم يسيل من فمه :

ـ لقد خبأت لكما البندقية في حديقة البيت ولسوف تجدانها عندما تكبران .

... وانطفأ السراج بهدوء . وغرسنا ابا جابر على عجل في ظل شجيرة قندول ، ما زال شوكها الطويل حتى الان يدمي قلبي ويدي ويطفىء الشمس والطريق في عيني .

وسقطت دمعة كاوية على يد ام جابر فأجفلتها وردتها من التيه في الماضي ، لتربطها من جديد الى الغيمة التي ما زالت تحوم فوق صفد .

***

الغيمة تهبط حتى لتكاد تلامس رأس المئذنة .

المئذنة مهشمة مهجورة ، هجرتها روعة الآذان عند الفجر وجلاله عند المغيب ، وعششت فيها قبيلة كاملة من البوم ، والمسجد تحتها وكر كبير للوحشة ، للسنونو

الكثيب ، وعصافير الدوري وأسراب اليمام .

والله لم يعد يعرف في صفد ، لقد رحل هو ايضا عنها منذ اليوم الذي تخافت فيه صوت القائد حتى صار اشبه بالوشوشة :

ـ يا جماعة اخرجوا . هي بضعة أيام ثم تعودون .

... وكرت السنون ، ولم تنقض بضعة الايام تلك.

وصارت عظام أبي جابر ورفات جابر ترابا يطأه اليهود وتبول عليه كلابهم كل يوم .

ويبست الوردة في صحون دارنا ، وذرت الريح أوراقها في وجه المجهول . ونبتت مكان القرنفلة في شباكنا الغربي رذيلة شقراء توجه لكل عابر ، وفي كل لحظة ، دعواتها الوقحة .

ومنثورة المسكينة لا يدري أحد متى وكيف ماتت . ربما تكون قد ماتت تحت عجلات مصفحة او جرارة فجرت ذراتها الى الابد بتراب الارض التي ظلت وفية لها اكثر منا . وربما كانت نهايتها على يد علج رماها في مساء خريفي متوهما انها عربي جاء يجوس الديار متجسسا بعد ان تحول الى قطة .

وزياد ابن السادسة ، صار رجلا لا يحلم الا بصورة أبيه التي كانت معلقة في صدر الجدار الشرقي .

وجهاد ابن الرابعة ، كبر ، وطلع له شاربان اسودان كقلب الليل .

والغيمة ما فتئت ، طوال خمسة عشر عاما ، تجرجرني بلا رحمة في الطريق الى صفد .

وبضعة الايام التي وعدنا بها جناب القائد لم تنته بعد .

والخيمة التي تصدقت بها علينا وكالة الغوث بليت ورقعناها بالياس الورق والخيش مئات المرات ، فلم ينفع الترقيع وظلت العاصفة تعيش في خيمتنا والمطر والريح والعقارب والموت والذباب وحر الصيف .

والمخيم لم يعد كما وعدونا ، مرحلة موقتة ، بل صار وطنا وصار لهذا الوطن البائس مقبرة تبتلع منا كل يوم عشرات ، بعضهم يفنيه طول الانتظار ، وبعضهم يرديه الجوع والمرض ، وبعضهم يمزقه الحقد على الذات وعلى الناس وحتى على الله .

وفي المذياع أسمعهم يسخرون منا برطانتهم الثقيلة ويقولون ان الرعب أخرجنا من منازلنا كالفيران .

ويقهقهون باستفزاز وتحد ولؤم ، فتصطك عظامي ، ويكم زياد المذياع الوقح بقبضته فيخرسه ، ويبصق جهاد في وجوههم بعصبية وتمزق :

ـ كذابون وأبناء كلاب .

ويصلح غنوم الكهربائي المذياع فيعود ابناء الكلاب الى السخرية بنا من جديد ، او يمدون لسانهم لنا من مذياع الجيران ، وما زالت سخريتهم هذه تتكرر في كل لحظة ، وطوال خمسة عشر عاما ، ومع ذلك فبضعة الايام التي وعدنا بها حضرة القائد ذي النجوم الصفراء لم تنته بعد .

***

وعاد شباط فجأة الى تجهمه وعبوسه .

وصفرت الريح كأنها تعوي في العراء .

وابتلعت الغيمة البيضاء غيمة اخرى كبيرة ، راحت تكبر وتمتد وتغطي بسوادها السماء فلا تبقي منها ، حتى ولو كوة صغيرة زرقاء .

وأخذ المطر يتساقط خفيفا ، وبدأ المساء يزحف بحزن وكآبة ليلف الكائنات بالصمت والظلام .

وانتشر الضباب كثيفا ، فسد المدى امام عيني أم جابر وأغرق أحلامها وقطع الطريق بينها وبين صفد ، فداهمها من اجل ذلك حزن شديد أذهلها عن نفسها ، وجمدها في مكانها كتمثال من جليد ولكن طرفها ظل رغم ذلك مشدودا نحو البعيد البعيد يحاول بيأس مر ، ان يخترق جدار المستحيل .

ثم انطوت سهول الحولة .

وغابت بحيرتها .

وذابت جبال الجليل .

وامتد ساعد قوي فهز تمثال الجليد :

ـ جدتي ، ما بك يا جدتي ؟ هل أنت مريضة ؟ لقد أقلقنا تأخرك فخرجت أبحث عنك منذ ساعة .

وتمتمت أم جابر كأنها تهذي :

ـ أهذا أنت يا جهاد ؟ أنا بخير يا بني فاطمئن . انني منهكة بعض الشيء ، لاني عائدة لتوي من صفد .

ـ ماذا تقولين ؟ عائدة من صفد ؟

ـ نعم ولقد شهدت هناك مغيب الشمس فرجعت مسرعة لاعدو الى مغيبي ولاوصيك انت وزياد ان تسرعا لتشرقا غدا مع الشمس الجديدة ، على صفد .

ومضى الشبحان صامتين يدبان في غبش المساء نحو المخيم الذي كان ما يزال يصارع الريح والجليد والموت والظلام .

احمد سويد

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

٤٢ ـ ٤٤ شارع الملكي ـ الاحباس

الدار البيضاء ـ المغرب

دائما في خدمة الكتاب الفاضل

ورسول الثقافة العربية في المملكة المغربية

متعهد توزيع كتب دار الاداب اللبنانية

وقد وصلتنا اخيرا الكتب التالية :

مشكلة الحب	**للدكتور زكريا ابراهيم**
قصص كامو	**ترجمة عايدة مطرجي ادريس**
قصص سارتر	**ترجمة الدكتور سهيل ادريس**
سيرتي الذاتية لسارتر	**ترجمة الدكتور سهيل ادريس**
لا بحر في بيروت	**قصص لغادة السمان**
عاشق من افريقيا	**شعر محمد الفيتوري**
أعياد	**قصص لعبد الله نيازي**

عاصفة على السكر (طبعة جديدة) لسارتر ـ ترجمة عايدة ادريس